الوسيط
في تاريخ النحو العربي

الوسيط
في تاريخ النحو العربي

تأليف
الدكتور عبد الكريم محمد الأسعد
أستاذ النحو وتاريخه في قسم اللغة العربية
كلية الآداب - جامعة الملك سعود - الرياض

دار الشواف
للنشر والتوزيع
الرياض ١١٥٦١ - ص.ب: ٤٣٣٠٧

جَمِيع الحقُوق محفُوظَة

الطّبعَة الأُولى
١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

DAR
AL-SHAWAF PUB. & DIST.
دار
الشـــواف للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية - الرياض ١١٥٦١ - ص.ب ٤٣٣٠٧ - شارع الثلاثين العليا - س.ت ٢٧٨٢٠ - ت: ٤٦٤٢١٣٠ - ٤٦٢٣٦١٧ - ٤٦٢٣٦٦٧ - تلكس ٤٠١٢٤٩ إس جي - فاكس: ٤٦٢٢٨٦٦
Kingdom of Saudi Arabia, Riyadh 11561 - P.O.Box 43307 - 30Th St. Olays. - C.R. 27820 - Tel. 4622630 - 4622667 - Telx. 401249 SJ. Fax. 4622366

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم معالي الدكتور عبد العزيز الخويطر

وزير المعارف

خير من يعرف معلومات مادته ، ويحيط بمصادرها ، ويشعر بأهمية هذه المصادر ، وبمدى الحاجة إليها ، هو أستاذ الجامعة ، الذي يصرف همَّه ، في المعتاد ، إلى تعليم الطلاب ، وتثقيفهم ، ويقصر جهده على القيام بالبحث العلمي الجاد المتواصل ، بغية استقصاء الحقائق ، ووضعها أمام الطلبة والباحثين .

وعندما يقضي أحد الأساتذة فترة من عمره يجمع ويستقصي ويحلل ويُقارن ، ويخرج في النهاية كتاباً وافياً في حقله ، محيطاً بموضوعه ، مستجيباً إلى تطلع المتخصصين ، تكون فرحة المتلقي ممن يقدّر هذا العمل فرحة كبرى .

من هنا كانت فرحتنا بهذا الكتاب الجديد عَن النحو والنحاة متساوية مع المجهود الحسن المبذول فيه ، والنتيجة الطيبة المتوصّل إليها .

إن من عرف النحو ، أو اطلّع على شيء من سيرة أقطابه ، ثم وجد في نفسه شوقاً إلى المزيد فيهما لا يلبث أن يستشعر العناء الذي سيقابله ، والمشقة التي سيكابدها في تحقيق هدفه ، وربمّا أحسّ بشيءٍ من خيبة الأمل في هذا السبيل ، لأنّ ما قيل عن النحو أو تاريخه جاء متفرقاً ، وتعليلات أكثر مسائله جاءت موغلة في المنطق ، يشوبها في كثيرٍ من الأحيان نظر سفسطائي ، وتحكيك جدليّ ، وبعض الآراء فيه ينقض بعضها بعضاً ، ولن يستطيع - أمام هذا كلّه - إلا المتخصص ، الشديد التخصّص ، أن يزيد الصورة

وضوحاً ، وأن يضع صُوًى على الطريق تهدي إلى ما هو أقوم في هذا السبيل .

وإذا كان لجمهرة السابقين من أهل النحو ، والمشتغلين بتاريخ رجاله ومدارسه ـ ولا سيما من كان منهم متأخراً في عصور التخلف ـ عذرهم في عدم تنقية هذا العمل مما شابه ، وفي عدم جمعه ، وإحسان عرضه في صياغات واضحة ، وكتب متخصصة ، فإنّ الباحثين المعاصرين لا يعذرون في زمننا هذا زمن التخصص الدقيق ، والدراسات الموجّهة ، والفرص المتاحة ، ولا تقف تعلّاتهم على قدمين .

وإني لأظنّ أن ما أقدم عليه هذه الأيام الأخ الاستاذ الدكتور عبد الكريم بن محمد الأسعد في هذا الكتاب الماثل بين يدي القارىء يعدّ عملاً متميّزاً في هذا الباب ، نرجو أن يكون قد أضاف به إلى نظرائه ، كما نرجو أن يشجع في الوقت نفسه آخرين على إيفاء أمثال هذه البحوث فيما بعد المزيد من الدرس والتتبع والتحليل ، وردّ الظواهر إلى أسبابها ، ورصد النتائج التي قد تأتي منها ، ومقارنة جهود العرب في نحوهم مع جهود علماء اللغات الأخرى ، في قواعد لغاتهم .

لقد حاول الدكتور عبد الكريم ، في نهجه الذي اتبعه ، أن يوفّي موضوعه حقّه ، وحرص على أن يستقصي الحقائق عن النحويين، ولم يكن ذلك في حقيقة الأمر سهلاً ، كذلك التزم ، كلما وجد إلى ذلك سبيلاً ، بأن يحلّل طرفاً مناسباً من المسائل النحوية ، ويقارن بين الآراء فيها ، ويرجّح ما وسعه الترجيح ، وذلك ليكشف ما يكمن خلف الأخبار والآراء في بعض الأحيان من فوائد ومرام قد تفوت القارىء المجتاز السريع .

وقد وقف المصنّف أيضاً وقفات تأمل ، أعطى على أثرها أحكاماً دقيقة صائبة في أطراف من فروع النحو ، وأوضح من خلالها الكثير مما مرّ به هذا العلم منذ بدايته ، وفي خلال تطوره ، وأبان الكثير من أخبار رجاله ، وكشف عن العديد مما قاموا به ، وأبدعوا فيه . ولكنّ النهج الذي اتبعه الدكتور عبد الكريم اعتمد أكثر ما اعتمد على جمع ما تفرّق في موضوعه ، وهو يهدف من ذلك إلى إراحة القارىء ، وإلى أن يفتح للمستزيد المزيد من الأبواب ، وإلى أن يمهّد له طريق الوصول إلى ما يريد ، ومراجع المؤلف ومصادره الكثيرة التي اعتمد عليها ، واستفاد منها ، وسجّلها ، كفيلة بالإرشاد إلى ذلك .

ومع أن الدكتور عبد الكريم ألقى الضوء في مقدمته على منهجه الذي أوضحنا شيئاً من معالمه ، وزدنا عليه ما حجبه تواضعه ، فإننا نرى أنه يعدّ من قبيل الإفراط في التواضع قوله في المقدمة :

« ولا أزعم أنّي أتيت بجديد ، وإنّما هي معلومات جمعتها من مصادرها ومراجعها ،

ووضعت كل جزءٍ منها مع قرينه ، وأحسنت على ما أرجو وضعها وعرضها وبيانها مع تعليقات مناسبة فتح الله بها ربما بدا طرف منها ممتزجاً مع غيره ، مختلطاً بسواه ، محتاجاً إلى التنقيب عنه ، لكنه لا يخفى على فطنة القارىء الحصيف ، ولا ينأى عن عينه الفاحصة » .

وأيّاً ما كان الأمر ، فلقد بذل المؤلف جهداً مشكوراً ، سوف يبقى مذكوراً ، وسيجد طالب العلم في كتابه هذا ذخيرة تعينه ، وعلماً يطمئن إليه ، لما فيه من دقة الاختيار ، وسلامة التمحيص ، وحسن الأداء .

لقد تحدّث الدكتور عبد الكريم في كتابه هذا عن النحو وفضله ، وبيّن القصد منه ومن درسه ، ثم تحدث عن الثقافة العربية ونشاطها ، والنحو وجه زاهر من وجوه هذه الثقافة . كذلك تحدث عن جمع اللغة العربية وتدوينها، وعن القبائل التي أخذت اللغة عنها ، محاولاً من خلال ذلك كلّه تصوير الجوّ الإجتماعي واللغوي والثقافي الذي أرهص بنشوء النحو ، ونحوه من سائر علوم الآلة ، فضلاً عن علوم الثقافة الإسلامية الأخرى .

ثم تطرّق إلى ظهور اللحن وانتشاره ، ونشأة النحو وزمانها ومكانها ، وأول من وضعه ، ومبتدأ تسميته بالنحو ، وتطوّره .

ثم تكلّم عن مدارس النحو ، وطبقات رجالها وأخبارهم ، وما جرى بينهم من اتفاق واختلاف .

واستمرّ يثري هذا الحقل بمعلوماتٍ قيّمة حتى انتهى إلى المرحلة التي توقّف فيها التأليف في النحو أو كاد ، إما لكفاية ما كُتب ، أو لعجز الباحثين التقليديين عن تصنيف المؤلفات الإبداعية في هذا العلم ، لما شاب الحياة بأخرةٍ من الجمود ، أو لأسبابٍ إجتماعية أو سياسية أو ثقافية متنوعة .

ولقد استقصى الدكتور عبد الكريم في الترجمات ما امتاز به بعض المترجَم لهم ، وأظهر بقوة ما برّزوا فيه ، وسلّط أنواراً كاشفة على مجهود كل واحد من النحاة في النحو ابتداعاً أو توسعة أو اختصاراً ، وغاص على أسباب تقدُّم من تَقَدَّم منهم في الميدان ، كذلك أدلى برأيه فيما اختلف فيه بعض العلماء من نسبة هذا الكتاب إلى فلانٍ أو فلان ، وكشف عن أنّ فلاناً في كتابه قد أخذ جلّ كتاب فلان أو أخذه كلّه وغيّره وادّعاه .

ومهما يكن من أمر فإنّ قارىء هذا المصنّف سوف يشعر أنّه يقوم فعلاً بسياحة ممتعة في حقول يانعة ، لأنّ الحديث عن النحاة بالتفصيل ـ مع قدرٍ مناسب من التحليل ـ لا بدّ أن يشدّ القارىء ، ويجعله على وجه الخصوص في شوقٍ إلى معرفة تفاصيل مفيدة عن حياتهم ، وهي تفاصيل قد لا يعرفها كثيرون ، وستكون بلا شك تفاصيل ممتعة وجذّابة ،

وفيها من المفاجآت والطرائف ما قد يخطر على البال أو لا يخطر .

على أنّ قراءة كتب النحو ، وما يتصل بها من الكتب التي تؤرّخ له ، لا تخلو من شحذ للذهن ، وتوسعة للمدارك ، لأن الجدل الدائر في كتب النحو بخاصة يرتكز في حقيقة الأمر ـ بصرف النظر عن قيمته في ذاته ، أو جدواه في أثره ـ على أسس قوية وثابتة من العمل العقلي ، والجهد الذهني ، وإنّ المطلع على محاولات فطاحل النحويين ، وعلى تخريجاتهم للأساليب اللغوية التي خرج ظاهرها عن القواعد الموضوعة ، والأصول والقوانين المتعارف عليها ، ومحاولات كل واحد منهم أن يعود بالصيغة الظاهرة عن طريق التأويل والحمل ، إلى أحد أصول النحو المتعارف عليها ، المسلّم بها لثباتها وانتظامها وتواترها ، سيجد عقله وكأنّه كرة يتقاذفها لاعبان أو لاعبون ، إذا أدلى أحدهما أو أحدهم بتعليل وجد الدارس أنّه يتفق معه فيه ، ثم لا يلبث هذا الدارس أن يَعْجَبَ من نقض الآخر لرأي الأول في المسألة نفسها ، ومما أعطاه من تعليل مخالف ، يقوم على قاعدة أخرى ، هي بدورها من القواعد المتعارف عليها ، ويبقى الدارس يلتفت يميناً ويساراً حتى يُجْهَد منه الأخدعان ، ويجد أنّه في مسألة واحدة قد تراءى له الصواب صوابين ، والحقّ حقّين ، وهو لم يستفد من مناظرات هؤلاء العلماء ومجادلاتهم في الحقائق النحوية فحسب ، وإنّما استفاد أيضاً من طرقهم الفائقة ، وأساليبهم القويّة ، في إتقان إدارة الجدل ، وإحسان الحوار والنقاش ، بما ينطوي عليه ذلك من المفاجأة ، ويستدعيه من حسن التّنبّه ، ودقّة التحفز .

أذكر ـ ونحن في دار العلوم بجامعة القاهرة ـ ندرس النحو ، أنّا كنّا لا نملّ من متابعة ما يسمّيه أساتذتنا الأجلاء « بالعقارب » في النحو ، ويبدو أنهم سمّوها بذلك لأنها مخبأة تحت ما هو ظاهر من انتظام قواعد النحو ، كما تختبىء العقارب تحت الأحجار ، أو لأنّ مجيئها في الامتحان كان مزعجاً لنا نحن الطلاب الذين لا نغرف من البحر الذي يغرفون منه ، ولا نستطيع الغوص مثلهم على درر النحو ، أو اكتناه أسراره ، والكشف عن خفايا مسائله ، على النحو الذي يفعلون ـ رحمهم الله ـ في ثقة واقتدار .

ولا أظنّ أن طالباً جامعيّاً درس النحو لم يقف يوماً يتابع ـ على سبيل المثال ـ الأوجه الإعرابية والبنائية المتعددة في « أيّ » ليطبق ذلك على قوله تعالى : ﴿ أيّهم أشدّ ﴾ متأمّلاً ومحلّلاً قول ابن مالك :

أيّ كما وأُعربت ما لم تضف ... وصدر وصلها ضمير انحذف
إنْ يُسْتَطَلْ وَصْلٌ وإن لم يُسْتَطَل ... فالحذف نزرٌ وأَبَوا أن يختزل

ا ل آخر الرجز في هذا الموضوع .

ولا أظنّ أيضاً أنّ أحداً من الدارسين لم يتعامل مع ما في شرح الأشموني وحاشية الصبّان من صعب المسائل ودقيقها، وعويص العبارات وعميقها ، فضلاً عن البحوث الكثيرة المطلوبة التي ينبغي أن يذهب الطالب فيها إلى ما هو أبعد ، نقلاً وجمعاً وتحقيقاً وتثقيفاً وتحكيكاً ونقداً واستنتاجاً واستخلاصاً .

دخل علينا استاذ النحو ذات مرّة ونحن في السنة الثالثة من كلية دار العلوم ، وفي أثناء محاضرته ذكر لنا أنه كان مع زملائه الأساتذة في غرفة استراحتهم بالكلية ، فجرى الحديث عن كلمة « أبداً » ، فقال أحدهم : إنّها لا تأتي إلا للنفي ، وأمّن الباقون في أول الأمر على ذلك ، ثم فجأة تذكّر أحدهم قول الله تعالى : ﴿ **خالدين فيها أبداً** ﴾ ، وأنّ « أبداً » في الآية للإثبات ، بل للإثبات الدائم ، فدُهش الباقون ممّا وقعوا فيه من الغفلة عن حقيقة قد يدركها حافظٌ «جزءَ عمّ»، شادٍ في النحو ، ليس له من تحصيل الإعراب وفنونه نصيب كبير .

إنّ الذين درسوا النحو ، وقرأوا كتبه وهضموها ، لا يسعهم إلا أن يتعلّقوا به ويحبّوه ، وإلّا أن يفرحوا إذا رأوا جديداً يؤلف فيه ، أو في تاريخه .

وللعرب أن يفخروا بأنّ ما اخترع من علوم الآلة لخدمة لغتهم ، وفي مقدّمتها علم النحوّ ، لا يماثله في الإتقان ، وجودة الاستقصاء ، وبراعة الاستنتاج ، ما كُتب عن أيّة لغة أخرى ، وذلك على الرّغم من كلّ ما رمي به الدرس والتصنيف اللغويّ والنحويّ في العربية من عيوب ، وما نُسب إليه من مثالب .

وإذا كان النحو في اللغات الأخرى قد خدمها على نحو أو آخر ، فإنّ النحو العربي يتميّز بإيغال أصحابه - بعد النحاة الأوائل ، وباستثناء فريق من المجدّدين فيه فيما بعد كعبد القاهر وابن مضاء القرطبي وأضرابهما - في التحليل والتعليل والتركيب والتدليل والتخريج والتأويل ونحو ذلك من العمليات العقلية ، ممّا جعله ثريّاً بالمنطق والتفلسف في كلّ جوانبه ، ومع أنّ النحاة على وجه العموم طعّموا نحوهم بالفلسفة ، وأدمجوه في المنطق ، وخلطوه بوجوه البلاغة التقليدية ، وأوغلوا في بعض العصور في تعقيد أساليبه ، فإن حياته الخصبة - على الرغم من هذا الذي عدّه كثيرون عيباً - لم تكن لتماثلها في خصوبتها حياة ثانية للنحو في اللغات الأخرى .

والرسول يختار عادة بعناية فائقة ، يختار حكيماً كُفأً للمهمّة الموكولة إليه ، عاقلاً رزيناً ، قوله واضح ، وأدبه ظاهر ، ليؤدي أمانة الرسالة بين المرسِل والمرسَل إليه كاملة ، ولتأتي هذه الرسالة بالثمرة المرجوّة منها ، واللغة - أيّة لغة - هي رسول فكر المتكلّم إلى ذهن السامع ، فينبغي لها أن تؤدِيَ الغرض منها كاملاً ، ولا بدّ من أجل ذلك أن تكون صافية

واضحة دقيقة صحيحة فصيحة جميلة ، وأن تكون كذلك متناسقة منتظمة منسجمة ممثلة للفكر السليم الذي تحمله ، ولنبل القصد الذي ترمي إليه ، وهذا لا يتأتّى إلا إذا كانت مرتبطة بأصولها ، متّكئة على جذورها ، منطلقة منها، ملتزمة بالمحافظة عليها ، مستقيمة على قواعدها وقوانينها في الأداء .

واللغة العربية أَوْلَى اللغات بذلك ، لأنّها وعاء القرآن الكريم ، والسنّة المحمدّية المطهرّة ، ووعاء أدبنا وتاريخنا وتراثنا العلمي .

وقد حرص الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدون من بعده ، على الدعوة إلى الابتعاد عن اللحن ، وعلى الالتزام بسلامة الأداء ، وكتب التراجم والمصنّفات في تاريخ النّحو مليئة بتوجيهاتهم ونقودهم وأحكامهم ونصائحهم ، واستنكارهم لكلّ خروج عن القواعد ، ولكل لحن وخطإٍ في التعبير ، وسيجد القارىء في خلال حديث المؤلف عن اللحن قصصاً متعددة ، وأمثلة كثيرة على ما نقول، مما يُغنينا عن ذكر المزيد منها هنا .

لكلّ ما ذكرنا كان حرص الرعيل الأول من علماء اللغة والنحو ، الذين عرفوا حقّ العربيّة ، لغة القرآن ، والذين أدركوا أهميّة صيانة أساليبها ، على أن يضعوا ضوابط السلامة التي تحمي من الزلل فيها ، وعلى أن يشدّدوا على الالتزام بهذه الضوابط ، من أجل حماية اللغة من الخطأ واللحن والفساد ، ومن أجل وصل ماضيها بحاضرها ، والمحافظة على مستقبلها ، ومن أجل وقاية الدين والإبقاء على شعلة الحضارة الإسلامية وهّاجة ، وحتى لا تتلاشى أو تضعف فيتلاشى أصحابها العرب أو يضعفوا .

لهذا كلّه ، ينبغي لنا الاعتزاز بجميع علوم الآلة ، وفي مقدّمتها علم النحو ، والمحافظة عليها ، لأنّها حصون حماية العربية ، وأسلحة الذود عنها . وينبغي لنا كذلك أن ندرس تاريخ النّحاة ، ومدارسهم ، وأن نعرف عن أحوالهم وآثارهم وأخبارهم ما لا يجوز أن يفوتنا ، أو أن نغفل عنه .

من هذه الزاوية فإن كتاب الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأسعد هذا الذي سمّاه « الوسيط في تاريخ النحو العربي » يعدّ مفيداً لأنّه لبنة في البناء العظيم للنحو وتاريخه ، نرجو أن ينال عليه ـ إن شاء الله ـ الأجر والثواب ، جزاءً وفاقاً، على ما بذله فيه من جهدٍ واضح ، وتكرّماً من الله وعطفاً على ما أخذه على عاتقه في هذا الطريق النّبيل .

والله من وراء القصد ، وهو الهادي إلى سواء السبيل .

عبد العزيز الخويطر

الرياض في ٤ /٩/ ١٤١١ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

في قسم اللغة العربية بكلية الآداب بجامعة الملك سعود بالرياض مادّة مقرّرة على الطلاب تُسمَّى « تاريخ النحو العربي » أو « المدارس النحوية » ، وأعتقد أنّ هذه المادة مقرّرة أيضاً في سائر أقسام اللغة العربية في الجامعات الأخرى، وهي فيها جميعاً مادة اختياريّة ، ليس لها ـ فيما أعرف ـ كتاب مقرر ولا شبه مقرّر ، ومبناها ومدارها ـ في الواقع ـ موضوعات موجزة شتّى مستنبطة من كتب مختلفة تتراوح بين المصادر القديمة والمراجع الحديثة تُلقى على الطلاب من أساتذتهم ، فيحملهم إيجازها على الرجوع إلى الأصول يستجلونها الغامض ويستزيدون منها ما ينقصهم أو يفصّلون بمعلوماتها الضّافية ما أوجز بين أيديهم على ما تقضي بذلك سنن الدراسة الجامعية . ولقد سألني أكثر من طالب أكثر من مرّة ، ثم ألحّ عليّ السائلون من الدارسين مراراً وتكراراً أن أضع لهم كتاباً أحاول أن أجمع فيه بين الإحاطة وشبه الإيجاز في موضوعات هذه المادة ، وأن أغنيهم به إلى حدّ كبير عن الرجوع الكثير إلى الأمّات ، فقبلت ذلك متردّداً متهيّباً ، ثم عزمت عليه ، فشرعت فيه وأنا أضع نصب عينيّ أن يكون كتابي كغيره من المراجع الحديثة واحداً منها لا يتقدّمها ، ولا يتميّز عن بعضها إلّا بالخبرة التي يمكن أن أكون قد اكتسبتها من تدريس هذه المادة في أكثر من فصل دراسيّ لطلّاب هذا القسم من هذه الكلية في هذه الجامعة ، وقد جُلت في هذا المصنّف في الإطار الأكثر مناسبة والأقرب من فهوم الطلاب والأدنى إلى طلبهم دون شطط بتطويل لا تدعو إليه الحاجة أو إخلالٍ بإيجاز لا يفي بما يجب أن يحصّله الطالب من المعلومات ويوقع في التقصير ويحمل على المؤاخذة .

ولقد عرضت محتوياته على من أحترم وأقدّر معالي الدكتور عبد العزيز الخويطر الذي أطمئن إلى علمه ، وأعلم دقّته وحرصه ، وأدرك حبّه للمعرفة ، وأعرف اختصاصه بالتاريخ وبعلوم العربية وإلمامه بهما على حدّ سواء ، بالإضافة إلى احترافه التعليم تدريساً وإشرافاً وإدارة ، والذي أتوق من أجل ذلك كلّه إلى معرفة رأيه فيما أكتب ، فأنعم فيها النظر وأطال الفحص والتقليب على الرغم من ضيق وقته وجسامة مسؤولياته وتشعّبها ، وقد أظفرني ذلك منه بملاحظاتٍ سديدة ، وتوجيهاتٍ صائبة ، ونقود سعدت بها سواء ما كان منها متفقاً مع رأيي أو مختلفاً .

ثم إنّ هذا الكتاب الماثل الآن بين يدي القارىء ليس مقرّراً ولا شبيهاً بالمقرّر على أحد ، وإنّما هو عاملٌ مساعد لمن يرغب من الدارسين ، وباب إضافيّ أفتحه لمن يريد منهم أن ينظر في أبعد ممّا يُلْقَى عليه في المحاضرة الجامعية ، ولا أزعم أنّي أتيت فيه بجديد ، وإنّما هي معلومات جمعتها من مصادرها ومراجعها ووضعت كلّ جزء منها مع قرينه وأحسنت - على ما أرجو - رصفها وعرضها وبيانها مع تعليقاتٍ مناسبة فتح الله بها ربّما بدا طرف منها ممتزجاً مع غيره مختلطاً بسواه محتاجاً إلى التنقيب عنه ، لكنّه لا يخفى على فطنة القارىء الحصيف ولا يناى عن عينه الفاحصة .

وقد أسميت هذا الكتاب« الوسيط في تاريخ النحو العربي » لعلّه يحبّب الطلاب في هذه المادّة ويرغّبهم في أن يتوسّعوا في مطالعة هذا التاريخ ومتابعة وقائعه والاطّلاع على سَيْر واحدٍ من أهمّ علوم الآلة وعلى سيرة أقطابه الذين قدّموا من خلال مدارسهم النحوية للعلوم اللغوية وللدرّس النحوي في العربية فوائد جلّى خلدت على الزمان في أسفارٍ ليس لها - فيما أعلم - مثيل في نحو أيّة لغة من لغات البشر أو في تاريخه ، والله من وراء القصد

المؤلف

الرياض في ١٧ / ٤ / ١٤١١ هـ
٤ / ١١ / ١٩٩٠م

فضل النحو

« حَدَّث أبو بكر بن مجاهد المتوفَّى في سنة ٣٢٤ هـ ، قال : كنت عند أبي العبّاس ثَعْلَب فقال : يا أبا بكر اشتغل أصحاب القرآن بالقرآن ففازوا ، واشتغل أصحاب الحديث بالحديث ففازوا ، واشتغل أهل الفقة بالفقه ففازوا ، واشتغلتُ أنا بزيد وعمرو فليت شعري ما يكون حالي في الآخرة ؟ فانصرفت من عنده فرأيت تلك الليلة النبي ﷺ في المنام فقال لي : أقرىء أبا العبّاس عنّي السّلام وقل له أنت صاحب العلم المستطيل »[1] .

« قال أحمد بن عطاء المتوفَّى في سنة ٣٦٩ هـ : أراد أنّ الكلام به يكمل والخطاب به يجمل ، أو أراد أنّ جميع العلوم مفتقرة إليه »[1] .

لعلّ هذه النادرة تبعث في طالب النحو الرغبة الصادقة في الإقبال عليه والأخذ بمحاسنه ، فإنّه يحزّ في نفوسنا ما نراه من فتور همم الطلاب في هذا العلم الجليل زعماً منهم أنّ الغرض المنشود منه لا يتكافأ مع ما يعانونه في مسائله وخلافاته المذهبية والشخصيّة ، وقد غرب عنهم أنّه سلّم الفهوم وعلم العلوم ، وفاتهم أنّ الطالب لا يتذوّق فنّاً من الفنون ويسير فيه على هدى وبصيرة إلّا إذا كان آخذاً من هذا العلم بطرف »[2] .

---

(١) الأنباري ، نزهة الألباء ٢٣١ .

(٢) انظر محمد الطنطاوي ، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة ٢٦٢ .

علم النحو

نبحث الآن في علم النحو العربي من نواحيه المختلفة ، في نشأته وطبقات رجاله وأصله وغير ذلك ممّا يتّصل بأوضاعه ومسائله المتعددة ، ويجمل بنا ابتداءً أن نتخّذ من تعريف النحو أساساً ومنطلقاً لكلّ ذلك .

١) فقد عرّفه ابن جني المتوفّى في سنة ٣٩٢ هـ بقوله : « هو انتحاء سَمْت كلام العرب في تصرّفه من إعراب وغيره كالتثنية والجمع والتحقير[١] والتكسير والإضافة والنسب والتركيب وغير ذلك »[٢] .

٢) وتحدّث عبد القاهر الجُرْجاني[٣] المتوفى في سنة ٤٧١ هـ عن النحو حديثاً رأى فيه أنّ دائرته يجب أن تكون أوسع من البحث في الإعراب وضبط أواخر الكلمات وأنّها يجب أن تمتدّ لتشمل نظم الكلام ، لذلك تكلّم في النظم وإطباق العلماء على تعظيم شأنه وتفخيم قدره والتنويه بذكره ، قال عبد القاهر : « واعلم أن ليس النظم إلّا أن تضعَ كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو ، وتعملَ على قوانينه وأصوله ، وتعرفَ مناهجه التي نُهِجَت فلا تزيغ عنها ، وتحفظ الرسوم التي رُسِمَت لك فلا تخلّ بشيءٍ منها »[٤] ، ثم ضَرَبَ أمثلة للجمل الإسمية والفعلية وللشرط وللحال ولأنواع من التقديم والتأخير ، وقال بعد ذلك : « فلست بواحدٍ شيئاً يرجع صوابه إن كان صواباً وخطؤه إن كان خطأً إلى النظم ، ويدخل تحت هذا الاسم ، إلّا وهو معنى من معاني النحو قد أُصيب به موضعه

---

(١) المقصود بالتحقير التصغير .

(٢) ابن جني ، الخصائص ١ : ٣٤ .

(٣) هو مؤسس علوم البلاغة في كتابيه المشهورين « أسرار البلاغة » و« دلائل الإعجاز » ، وهو أيضاً من كبار أئمة اللغة والنحو ، له كتاب « العوامل المائة » في النحو ، « انظر ترجمته في القِفْطي ، إنباه الرواة ٢ : ١٨٨ » .

(٤) عبد القاهر ، دلائل الإعجاز ٦٤ ، ٦٥ .

ووضع في حقّه ، أو عُومل بخلاف هذه المعاملة فأُزيل عن موضعه ، واستُعمل في غير ما ينبغي له ، فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحّة نظم أو فساده أو وصف بمزيّة وفضل فيه ، إلاّ وأنت تجد مرجع تلك الصحة وذلك الفساد وتلك المزيّة وذلك الفضل إلى معاني النحو وأحكامه ، ووجدته يدخل في أصل من أصوله ، ويتّصل بباب من أبوابه »[1] .

٣) واختار الأشموني المتوفّى في سنة ٩٢٩ هـ في أوّل شرحه على ألفية ابن مالك تعريفاً للنّحو هو « العلم المستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب الموصّلة إلى معرفة أحكام أجزائه التي ائتلف منها ، والمراد به هنا ما يرادف قولنا علم العربية لا قسيم الصرف ، وهو مصدر أُريد به اسم المفعول أي المنحو كالخلق بمعنى المخلوق » .

٤) وذكر الخضري الدمياطي المتوفى في سنة ١٢٨٧ هـ في مطلع حاشيته على شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك أنّه « يطلق على ما يعمّ الصرف تارة وعلى ما يقابله أخرى ، ويعرّف على الأول بأنّه علم بأصول مستنبطة من كلام العرب يعرف بها أحكام الكلمات العربية حال إفرادها كالإعلال والإدغام والحذف والإبدال وحال تركيبها كالإعراب والبناء وما يتبعهما من بيان شروط لنحو النواسخ ، وحذف العائد ، وكسر إنّ أو فتحها ونحو ذلك ، وعلى الثاني يخصّ بأحوال التركيب » .

وقد اختلفت هذه التعريفات كما هو واضح في تحديد دائرة القواعد النحوية ، فمن العلماء من رأى أن تشمل هذه القواعد أساليب اللغة من جميع نواحيها ، ومنهم من قصرها على ضبط أواخر الكلمات ومعرفة بنيتها واشتقاقها وتصرّفها ، ولعلّ منشأ هذا الخلاف في تحديد دائرة علم النحو راجع إلى صلة هذا العلم بالفروع الثقافية العربية الأخرى ، فإنّ علم النحو فرع من العلوم العربية ، وقد كانت هذه العلوم في أوّل الأمر تشمل النحو واللغة والأدب ثم اتّسع نطاقها فشملت الأخبار والسّير ثم ازدادت فروعها عدداً فأصبحت تشمل اللغة والأدب والصرف والنحو والاشتقاق والخطّ وقرض الشعر والعروض وإنشاء الخطب والرسائل والأخبار والسّير والتاريخ والمعاني والبيان ، أمّا البديع فذيل لا قسم برأسه . ولقد كان الأساس الذي يرتكز عليه البحث في هذه العلوم كلّها هو كلام العرب ، فكان الباحثون يجولون فيه من جميع نواحيه ليتعرّفوا على الأساليب والتراكيب وعلى الشعر وأوزانه وقوافيه وعلى الكلمات وبنيتها وضبط أواخرها وعلى غير ذلك ، وكان البحث في النحو في الأدوار الأولى للثقافة العربية ممتزجاً دائماً بالبحث في اللغة والأدب ، وممتزجاً بعلم القراءات وبأخبار العرب وتاريخهم في كثير من الأحوال ، فكان كثير من

---

(١) أنظر الهامش السابق .

العلماء تشمل ثقافتهم وبحوثهم هذه الفروع الخمسة ، لذلك وجدنا منهم مَنْ جَمَعَ في مؤلفاته بين المسائل النحوية والصرفية واللغوية والأدبية وبين ما له صلة بأخبار العرب وتاريخهم كالمبرد المتوفى في سنة ٢١٦هـ في كتابه الكامل ،وسبب ذلك أنّ مسائل النحو والصرف إنّما هي ظاهرة من الظواهر التي تعتري الكلمات حالة إفرادها أو تركيبها وتستأنس بالشواهد اللغوية والأدبية من كلام العرب أو بالآيات القرآنية على مختلف قراءاتها ، وانّ البحث في هذه الشواهد جميعاً من شتى نواحيها ممّا يقتضيه إتمام البحوث النحوية .

ثم اقتضت طبيعة التدرّج والتعمّق في البحث أن يستقلّ النحو عن الفروع العربية الأخرى وأن ينفرد به بعض العلماء وأن تظهر فيه بحوث ومؤلّفات مستقلّة حصرت مسائله وبسطت أصوله وفروعه وذكرت ما فيها من خلاف وساقت الشواهد لتعزيز ذلك .

ولا يعني هذا أنّه أصبح من الميسور أن نبحث في الخصائص النحوية الإعرابية وحدها دون أن نمسّ المعنى ، وأنّه أصبح سهلاً كذلك أن نفهم المعنى دون أن نفهم ما ينطوي عليه الإعراب من معاني الفاعلية والمفعولية ومن المواطن المبّينة للذات وللحال وللزمان والمكان وغير ذلك ، فليس من الخير إذن للّغة وهي أداة التعبير أن نفصل علومها بعضها عن بعض في أذهان الدّارسين حتى لو استقلّ النحو عن غيره من فروع العربية الأخرى في الوقت الحاضر فاللفظ والمعنى متلازمان، ولا تجيء القواعد النحوية إلاّ في خلال الأساليب والتراكيب ، فالبحث في الكلمات واشتقاقها ، والجمل وتركيبها ، والأساليب وأنواعها ، كلّ هذا ينبغي أن تسير مسائله جنباً إلى جنب حتى تتحقق الغاية التي تتعاون العلوم العربية على الوصول إليها ، من هنا وجب تعليم النحو متصلاً بالفروع العُربية الأخرى خاصّة تلك التي تتعرّض لألوان الأساليب وفنون البيان .

ولمّا كان كتابنا هذا في تاريخ النحو ومدارسه وتراجم رجال هذه المدارس فإنّنا سنقصر كلامنا فيه على التراث الخاص بعلم النحو بمعناه العام ، وهو التراث المحدّد الأطراف الذي تركه المتقدّمون لنا في كتب النحو والصرف التي بين أيدينا ، وهي كتب ومتون وشروح وحواشٍ وتعليقات وتقريرات ورسائل وبحوث تفوق الحصر ، وذلك من حيث نشأة المسائل النحوية والصرفية ونموّها وأساليب البحث فيها وصلتها بالثقافة العربية مع الاهتمام بالجوانب التاريخية ، وذلك على الرغم ممّا ذكرناه من أنّ علم النحو بمعناه الشامل للناحيتين الإعرابية والصرفية ليس ـ على اتساعه ـ كلّ خصائص اللغة العربية ، إنّما هو جانب من خصائص هذه اللغة ، وهو جانب جليل الشأن له كثير من الأهمية لأنّه الجانب الذي كان تسرّبُ اللحن إليه منبّهاً الأذهان لوضع القواعد النحوية لاجتناب هذا اللحن ..

الثقافة العربية ونشاطها

لم تنشأ اللغة العربية تامة التكوين ناضجة مكتملة بل قطعت مراحل متعددة في نموّها وتهذيبها ، فقد كان العرب قبل الإسلام يتوارثون لغتهم جيلاً عن جيل ، وكانت طريقتهم في ذلك المشافهة والمحاكاة ، ولم تكن لهم كتب مدوّنة ولم يكن للّغة علوم تخوض في أساليبها ووجوه النطق بها ، وكان عمادهم في الجاهلية حسّهم المرهف وذوقهم الفطري الصافي لأنّ ثقافتهم آنذاك كانت محدودة لا تعدو النظر فيما أحاط بهم في بيئتهم من مظاهر طبيعية وفيما وجد فيها من نبات وحيوان وفيما اتصّل بحياتهم في حلّهم وترحالهم . ثم جاء الإسلام فجمع شملهم وهذّب عاداتهم وقوّم طباعهم ووسّع أفقهم وحفزهم إلى البحث في ضروب من المعارف وبخاصة المتّصلة بالقرآن الكريم وتفهمّه ، وبالدين وما فيه من أحكام وآداب ونُظمُ ، وكانت بلدان الحجاز مثابة للناس ، يزورون المدينة ، ويقصدون مكة للحج ، فيزداد تعارفهم وتقوى الصلة بينهم ، وكان لمكّة إلى جانب مركزها الديني والاجتماعي مركز تجاريّ فقد كانت على طرق تجارية تصلها شمالاً وجنوباً بالشام واليمن وغيرهما ، وكان أهلها يرحلون رحلتي الشتاء والصيف[1] للتجارة ، كلّ ذلك كان داعياً إلى أن يفد إلى مكة والمدينة كثير من القبائل ، ولا يخفى ما لهذا من أثر في إثراء اللغة بلهجات القبائل المختلفة وفي المكانة الاجتماعية لسكّان هذه البقاع .

وفي عصر الدولة الأموية انتقل مركز الخلافة إلى دمشق ، وكانت النّعرة العربية ما تزال ناشطة والاعتزاز بالعروبة بالغاً حدًّا عظيماً ، وكانت المملكة الإسلامية عربية الصبغة فالولاة والحكّام والعمّال من العرب ، والسيطرة العامة للعرب في جميع المناصب إلّا بعض الأطبّاء والكتبة ونحوهم .

ثم جاءت الدولة العباسية فكان للعناصر غير العربية شأن في إدارتها وسياستها وجميع مرافقها ، وازداد اختلاط الفرس بالعرب وامتزجوا بهم ، ولا شكّ أنّ هذا

---

(١) رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام ، وكانوا يستعينون بالرحلتين في كلّ عام للتجارة على المقام بمكة لخدمة البيت الذي هو فخرهم ، قال تعالى : لإيلاف قريش : إيلافِهم رحلة الشتاء والصيف : فليعبدوا ربَّ هذا البيت : الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف . لإيلاف : مصدر آلَفَ يُؤالِفُ ، إيلافِهم : تأكيد لفظي ، فليعبدوا : الفاء زائدة وقد تعلّق الجار والمجرور « لإيلافِ » بهذا الفعل .

الإختلاط الشامل كان له أثره في اللغة العربية ، فبعد أن كانت سليقة أصبحت تنال بالتعلّم والدرس ، ولذا عكف كثير من الأعاجم على دراسة هذه اللغة ، وذلك لحاجتهم إلى ما يقوّم ألسنتهم ويكسبهم المقدرة البيانية التي يجارون بها العرب الخلّص ، وبعد أن برعوا فيها انصرفوا إلى التأليف والتدوين في شتى نواحيها ، لهذا نجد كثيراً من المؤلفات في اللغة وفي فروعها ممّا أخرجته عقول غير عربية من العناصر التي امتزجت بالعرب في العصر العباسي .

وممّا زاد العناصر غير العربية نشاطاً وجعل أثرها قويّاً انتقال الخلافة إلى العراق ثم تأسيس بغداد ، وبلاد العراق كانت موطناً لحضارات قديمة لها علوم ومعارف كثيرة ، وسكّانها هم بقايا أمم لها من هذه الحضارات نصيب ، وقد ازداد شأن هذه البلاد بعد الإسلام وامتلاك العرب لها وإقامة الأمصار فيها ، فقد اجتمعت فيها عناصر مختلفة من الشعوب على تباين أجناسهم ودياناتهم ، وكان لكلّ هؤلاء نصيب من الاشتغال بالعلوم الإسلامية ومزاولة الثقافة العربية ، فكان من الطبيعيّ أن يكون ما ينتجون من علم وليد عقليات لها في الأصل حظّ كبير من العلوم ، ولهذا كان العراق أهمّ مراكز الثقافة في الحياة العقلية بين البلدان العربية في العصر العباسي ، وكانت البصرة والكوفة تموجان بالباحثين والعلماء وطلّاب العلم في شتّى الفروع الثقافية التي نشّطها ظهور الإسلام وفي مقدّمتها الاشتغال بدراسة القرآن الكريم وتفسيره وتفهّمه من جميع النواحي ، وقد استدعى ذلك دراسة لغوية وأدبية وعناية بجمع الشواهد من أشعار العرب وكلام البدو لتأييد ما ورد في القرآن من أساليب وألفاظ وتراكيب .

نشط كلّ ذلك وبحث العلماء في اللغة والأدب والتفسير والشريعة والنحو وغيرها ، وكان حظّ الموالي والعناصر غير العربية من ذلك كثيراً كما ذكرنا، كذلك كان من بين العلماء الذين زاولوا العلوم العربية والدينية مَنْ لهم إلمام بثقافات أخرى كالثقافة الفارسيّة والسّريانيّة ، ومن لهم اتجاهات عقليّة خاصة في التفكير والبحث تبعاً لما تعوّدوه في لغاتهم وما درجوا عليه في معارفهم ومعتقداتهم السابقة وما طبعوا به في نشأتهم وحياتهم قبل الإسلام ، فأثّر ذلك في آرائهم واتجاهاتهم بشكلٍ ظاهر وغير ظاهر ، وسنعرض لبعض هؤلاء في أحاديثنا القادمة .

جمع اللغة وتدوينها

اشتغل العلماء والرواة في العصر العباسي بجمع اللغة ، وكان لهم في ذلك طريقان : أولهما : الشعر العربي القديم الذي يرويه الروّاة ، وثانيهما : مشافهة الأعراب الذين كانوا يفدون إلى المدن أو الذين كان العلماء والرواة يذهبون إليهم في بواديهم . وقد تحرّى مَنْ جمعوا اللغة وشواهدها الصواب على قدر ما استطاعوا ، لكنّ جهودهم لم تكن مكلّلة بالصفاء والوثوق في جميع نواحيها ، فقد اقترنت بها عوامل نجم عنها بعض الشوائب وشيء من الانحراف ، ومن هذه العوامل ما يأتي :

١) كان همّ من جمعوا اللّغة أن يسجّلوا أكبر قدر من ألفاظها من شتى لغات العرب دون أن يهتمّوا كما يجب بتحديد هذه اللغات وإيضاحها والفصل بينها ونسبتها إلى أصحابها دائماً .

٢) أخذ بعضهم اللغة في بعض الأحيان عن الكتب ، وقد كانت هذه الكتب غير منقوطة ، أو كان النّسّاخ يَغْفَلون عن نقطها ، فنشأ عن ذلك أنواع من التصحيف والاختلاف .

٣) لم يكن رواة اللغة في درجة واحدة من حيث التحرّي والثقة بهم فيما يروون .

٤) الشّعر الموضوع الذي قَصَدَ به واضعوه أن يعزّزوا رأياً أو يبرهنوا على وجهة نظر ، وقد وضع المولّدون كثيراً من هذا ودسّوه على الأئمة فرواه هؤلاء واحتجّوا به .

٥) عدم تحديدهم معاني الألفاظ تحديداً تامّاً يرفع اللّبس عنها ويزيل الشبهة منها .

٦) اختلاف اللهجات وتباين طريقة النّطق جعل بعض من يروون الشعر أو ينشدونه ينطقون به على مقتضى لهجتهم وبطريقة نطقهم الخاصّة بهم فنجم عن هذا شيء من الاختلاف .

وهذه العوامل ونحوها تستدعي من الباحث النظر والتحرّي والحرص على أن يزن اللغة بميزان يبعد بها عن المزالق ومواطن الانحراف .

القبائل التي أُخِذَتْ عنها اللغة العربية الفصيحة

الفصيح في اللغة العربية عند الرواة هو ما كثر استعماله في ألسنة العرب وفشا في أكثر

لغاتهم ، وقد جمعت اللغة الفصيحة من قبائل شتّى ولهجات مختلفة ، ولذا ظهرت فيها صيغ متباينة ، ونجد أمثلة كثيرة لهذا التباين في جموع التكسير والمصادر وغير ذلك ممّا هو مدوّن في كتب اللغة والنحو والصرف .

ولم تكن القبائل العربية في درجة واحدة من الفصاحة وصفاء العروبة فقد آختلط بعضها بعناصر غير عربية وعاش في بيئاتٍ كانت سبباً في تسرّب الدخيل والأساليب غير الصافية إلى ألسنة أبنائها ، ولهذا كان الرواة الثقات يتحرّجون أن يأخذوا شيئاً من اللّغة إلّا عمّن خلصت عروبتهم ، وآستقامت ألسنتهم وسلمت من العجمة وصفت من الشوائب والانحراف وأمنت طغيان الصبغة الأجنبية .

والعرب قسمان : القحطانية والعدنانية ، فالقحطانيون هم عرب اليمن ويُنسبون إلى يعرب بن قحطان ، وقد نزحت بعض قبائلهم إلى الشمال والشرق من جزيرة العرب ، فنزل بعضهم اليمامة والبحرين وعُمان والحجاز ، ونزل بعضهم مشارف العراق والشام ، ومن قبائل القحطانيين حمير وغسّان ولخم والأزد وكندة وطيء . أمّا العدنانيون فهم عرب الشمال ، منازلهم في تهامة ونجد والحجاز ، ويرجع نسبهم إلى عدنان ، ومن قبائل العدنانيين أنمار ومُضَر وربيعة وإياد ، وقد تفرّعت هذه القبائل إلى قبائلٍ أخرى ، وآشتهرت مضر على وجه الخصوص بالفصاحة حتى عُرفت اللغة العربية بالمضريّة ، ومن أشهر قبائل مضر قبيلة كنانة ، ومن بطونها قريش ، ثم قبائل تميم وقيس وأسد وهذيل وضبّة ومزينة ، وتحت كلّ قبيلة من هذه بطون وأفخاذ[1] ، ومن قبائل العرب العدنانين والقحطانيين على السواء قبائل لم يخرجوا من ديارهم ويسمّون « الأرحاء »[2] لأنهم لم ينزحوا عن أوطانهم بل داروا فيها كالأرحاء ، ومنهم قبيلة تميم وقبيلة أسد وقبيلة طيء .

وكانت قريش[3] أجود العرب لغة وأكثرهم أيضاً انتقاءً للأفصح من لغاتهم ، وقد أتيحت لها فرص الانتقاء حين كانت وفود العرب تفد إلى مكة للحج أو للتجارةوتتحاكم

---

(١) الفخذ الجماعة من الأقارب دون البطن ، والبطن دون القبيلة .

(٢) جمع رَحَى .

(٣) قريش : هو النَّضْر بن كِنَانة ومَنْ وَلَدَه ، وقيل قريش هو فِهْر بن مالك ومَنْ وَلَدَه ، وأصل « القُرْش » بمعنى الكسب والجمع ، فعله قَرَش يقرِش من باب ضرب ، وتَقَرَّشوا إذا تجمعوا ولهذا المعنى سمّيت قريش القبيلة ، وقيل قريش تصغير قِرْش وهو نوع من الأسماك الكبيرة وبه سمّي النَّضْر أو فِهْر ، والقَرْش ما جمع من هنا وهناك وجمعه قُرُوش ، والجُبّ القَرِيش نوع منه يابس قليل الدسم ، وينسب إلى قريش القبيلة بحذف الياء فيقال قُرَشيّ ، وربّما نسب إليه من غير تغيير فيقال قريشيّ وهو القياس ، وقريش إن أريد به الحيّ صُرِفَ لأنّه علم مذكر وإن أريد به القبيلة لم يصرف للعلمية والتأنيث .